شعاع في سماء الأدب

هـذا هـو الأديـب ميخائيـل مروكـل ممـو ، رغـم وقـوف الشـمس عموديـاً علـى رأسـه ، لكنـك تـراه طويـل الظـلال. ظـل يمتـد إلـى أسـبار التـاريخ ، وظـل يطـوف حـول هيكـل الشـعر ، وظـل يسـافر إلـى المسـتقبل. ورغـم زمـن الجـدب ، إلا أنـك تـراه مطريـاً يهطـل علينـا دومـاً بكتاباتـه. ورغـم أن الخريـف يطـرق بـاب فصـوله ، لكنـك تـراه أخضـر كأخضـرار بـلاد الرافـدين. عنـدما يلتجـئ القلـم طوعـاً إلـى دفء أصـابعه تـُعلن حالـة منـع التجـوال فـي مملكـة الأدب ، لأن انقلابـاً شـعرياً سـوف يحـدث حسـب تقـارير الحـرس الأدبـي. فيوضـع الأديـب تحـت الإقامـة الجبريـة ، لـيس لتقييـد حركتـه وقطـع زيـارات الحمـائم والـورود عنـه ، بـل لتحريـك قيـوده ودعـوة الأنسـام والفراشـات إليـه. فمـا بـين التفكيـر والتـدخين ، وبـين المـوت والمـيلاد يحبـل بجنـين القصـيدة ، ويطرح مولوده الشعري والنثري بولادة طبيعية لا قيصرية.

عنـدما يمشـي الأديـب ميخائيـل ممـو فـي ريـاض الشـعر عـادة مـا تلاحقـه المفـردات بصـورة غيـر طبيعيـة ، فمفـردة تقفـز فـوق ظهـره ، وأخـرى تسـحب يـده وأخـرى تتعلـق بقدمـه. مفـردة تـُظهر لـه مفاتنهـا إغـراءً منهـا لـه ، مفـردة تغيـر تسـريحة شـعرها أو عطرهـا وتسـتخدم أحـدث أدوات التجميـل ، وترتـدي أجمـل المـوديلات الفصـلية ، فتكـون محظوظـة حـين يختارهـا الأديـب ليتزوجهـا. فمـا هـذا الجنـون الـذي يصـيب المفـردات عنـدما يلتقيهـا الأديـب الكبيـر! ومـا هـذا السـر الـذي يجعـل الأديـب الشـاعر ميخائيـل ممـو يغيـر ماهيـة الكلمـة السـيفية إلـى كلمـة زيتونية ، ويغير القبلة القطبية إلى قبلة إستوائية ، ويغير صحارى الوجدان إلى غابات زاحفة!

الأديـب الشـاعر ميخائيـل بركـان بحـري لا يُخبرنـا متـى سـينفجر ليقـذف حِمَمِـهِ ، فنتفاجـأ بإنفجـاره ، وهـذا شـأنه الطبيعـي ، لأنـه بالأصـل مولـود فـي الإنفجـارات وتفـوح مـن جلـده رائحـة الحرائـق ، لأن هوايته المفضلة هي التسلي بالنيران.

العقـل الشـعري عنـد أديبنـا الحبيـب هـو خطـاب أخلاقـي مُطعّـم بـالجرأة والجسـارة ، تتصـاعد وتيـرة هـذا الخطـاب لتطـال الأنظمـة التسـلطية والشخصـيات اللاأخلاقيـة ، وهـذا مـا يتجلـى فـي العديـد مـن قصـائده وبـالأخص مـا يصـيغه بالآشـورية ، وبـتلاطم تموجاتهـا المتواليـة الصـاخبة ليُفعـل تفاعيلهـا بفعـل السـهام الجارحـة والرمـاح القاتلـة نظمـاً ونثـراً بدلالـة مـا نشـره فـي الصـحف والمجـلات والمواقـع الألكترونيـة وأمسـياته الأدبيـة سـواءً بالعربيـة أو الآشـورية. ومـن جملـة مئـات القصـائد ننتقـي بالآشـورية قصـيدة (أنـا وأنـا) التـي يرشـق فيهـا الأديـب والشـاعر ميخائيـل سـهام كلماتـه علـى صـدور الأنـاني والمتملـق والمتغطـرس ، وينتقـد سـر المنتفـع والمتقلـب نقـداً لاذعـاً ، وينـادي بالتواضـع والصـفاء والإنفتـاح والمصـافحة والمصـالحة. ومـن الثمـانين بيتـاً ننتقـي مطلعهـا التـي يقول فيها:

ܟܡܐ ܘܡܕ̈ܐ ܘܡܕ̈ܐ ܕܐ̈ܢܐ ܒܟܠ ܕܘܟ̈ܝܬܐ ܐ̈ܢܐ ܡܫܘܕܥ̈ܢܐ

ܟܡܐ ܕܡܕ̈ܐ ܕܡܕ̈ܐ ܕܐ̈ܢܐ ܒܟܠ ܕܘܟ̈ܝܬܐ ܐ̈ܢܐ ܡܕܒܪ̈ܢܐ

ܟܡܐ ܘܡܕ̈ܐ ܘܡܕ̈ܐ ܕܐ̈ܢܐ ܒܟܠ ܕܘܟ̈ܝܬܐ ܐ̈ܢܐ ܡܫܠܛ̈ܢܐ

ܟܡܐ ܗܕ̈ܝܐ ܗܝܕ̈ܐ ܕܐ̈ܢܐ ܒܟܠ ܕܘܟ̈ܝܬܐ ܕܠܐ ܡܣܟ̈ܢܐ

ويقف الشاعر ثانية وينظر الى الأفق اللامتناهي ليرى الشمس حمراء تودعه لتنام ، ويتذكر المثل القائل: إن من لم تدفئه شمس الشروق ، فلا تدفئه شمس الغروب. فيتألم لإنعدام من يقودنا نحو آفاق جديدة ويحقق طموحاتنا. ننتقي هنا مطلع القصيدة التي يقول فيها (لم يبق لنا).

ܠܝܬܠܢ ܦܘܫܐ ܝܘܡ ܚܕ ܕܢܚܘܬ ܒܪܘܚܢ ܗܘܫܐ
ܚܕ ܥܢܢܐ ܕܥܝܪܐ ܠܫܡܫܐ ܕܒܠܥܗ ܥܡܛܐ
ܐܢ ܢܦܫܢܐ ܕܢܚܪܒ ܕܡܚܒ ܗܘܐ ܠܢܟܪܝܐ
ܐܢ ܡܫܘܚܢܐ ܕܟܠܝܐ ܕܐܘܪܐ ܕܗܠ ܡܠܟܘܬܐ
ܘܥܒܕܐ ܕܒܠܝܗ ܒܕܘܟܐ ܕܦܢܝܐ ܟܐ ܦܘܫܟܐ

وبالإضافة إلى ما يطرق باب سمع شاعرنا من صرخات شعبه ، وأنات وطنه الجريح بسبب العنف والحروب والإرهاب ، فأنه يستمع إلى آلام وتذمرات اليراع النائم على صخرة الحزن ، فهو ضحية أصابع تسئ استعماله ، فيُضَيِّـع اليراع جمال سَبْـكِهِ للجُمل ، وتختنق أنفاسه ، ولكنه ينفجر ساخطاً ورافضاً أن يكون لعبة للأنانية والجهل، كما جاء في قصيدته الموسومة (شكوى أو تذمر القلم) التي يقول فيها:

ܐܢܐ ܩܢܝܐ ܕܡܫܚܐ ܕܡܫܟܚ ܠܝܗ ܡܢܝܢܐ ܫܠܝܛܐ ܒܣܘܠܩܝܐ ܡܩܝܡܐ ܒܚܡܫܝܢܐ
ܢܡܘܣܐ ܕܒܠܝܗ ܡܚܐ ܒܪܒܝܬܐ ܫܠܝܛܐ ܒܣܘܠܩܝܐ ܕܫܠܠܗܘܢ ܡܘܡܬܐ
ܫܠܡܝܢ ܠܥܘܦܪܗ ܕܢܦܫܐ ܠܝܒܫܘܬܗ ܡܢܟܬܐ ܠܢܦܫܗ ܕܒܝܗ ܒܪܘܠܐ
ܘܡܢ ܚܒܝܒܐ ܠܚܒܝܒܐ ܢܘܚ ܚܕ ܫܢܝܐ ܫܡܘܫܝܗ ܐܦܐܕܐ ܠܝܡܠܝ ܦܪܝܒܐ
ܐܝܡܘܡܝ ܠܝ ܡܠܟܐ ܕܗܘܝ ܫܪܝܠܐ ܟܐ ܚܕ ܫܦܫܦܐ ܟܐ ܡܝܪܕܩܢܐ
ܐܢ ܚܕ ܐܘܕܝܢܢܐ ܕܠܐ ܡܫܘܝ ܥܕܕܐ ܘܗܘܝ ܡܘܠܒܟܐ ܕܝܢܐ ܫܠܝܢܢ

إخترنا هذه القصائد كنموذج لما صاغه من الشعر الكلاسيكي الموزون والمقفى وبإستعماله هنا ثلاثة بحور متفاوتة هي البحر البعيد في الأولى من أربع دعامات وكل دعامة من أربع حركات. وفي القصيدة الثانية استعمل البحر المنسرح (المدرج) الشبيه بالمثلث المتساوي الأضلاع لتساوي الدعامات الثلاث لكل بيت. وفي القصيدة الثالثة استعمل ما يمكن تسميته بالبحر السريع المتكون من اربعة دعامات ولكل دعامة خمس حركات بتجاوزه لإسلوب الحداثة مع حفاظه على أوتار التفعيلة ، رغم استعماله لقصيدة النثر أيضاً.

***

لأديبنا الكبير الصغير ، الكبير بأعماله والصغير ببساطة روحه وتواضعه ، مفتتحات غنية بالوجدان القومي والوطني ، كإستخدامه للرموز التراثية ، يومئ ليوحي بأن ثمة عناصر إشعائية تضئ ممرات القصيدة ، بالإضافة إلى استثماره لمقدرته الكتابية وتوظيفها لخدمة الأدب والوطن والوجود الإنساني.

إذاً فالأديب ميخائيل كشاعر هو عزيز المذهب ، رائق الإسلوب ، عميق الفحوى وفي معانيه سحر بابلي. أما ميخائيل كناثر هو مصقول العبارة ، غريزي الفصاحة كآية نزلت على قلمه ، متبحر في ضروب الإنشاء.

لبنية القصيدة ثلاثة أنماط :

1. بنية تجاورية : وهي استغلال كل بيت في القصيدة والتقيد بوحدة الموضوع.

2. بنية تداخلية : لا يمكن فيها تقديم أو تأخير أو حذف أبيات.

3. بنية تجادلية : تقوم على حركة درامية في داخل القصيدة ، وتقدم أصواتاً متعددة ومتصارعة بما فيها صوت الشاعر.

لقد مارس ميخائيل هذه الأنماط من البُنى ، وما إنحاز إلى هيكل القصيدة الخارجي أي الشكل ، ولا إلى هيكل القصيدة الداخلي أي المضمون.

عرفت الأديب المتمكن ميخائيل منذ السبعينيات من القرن الماضي من خلال مجلة المثقف الآثوري الصادرة عن النادي الثقافي الآثوري في بغداد ، وكان في حينها سكرتير تحريرها ، وقد شاركت في نشر البعض من قصائدي فيها ، وكان الأستاذ ميخائيل مسؤول النشر ، وكم سَرّني لقاؤه ونحن في عمر الشباب ، وذلك عام 1974 عندما جاءنا زائراً إلى مدينة كركوك ليشارك في الأمسية الشعرية التي أقيمت في النادي الآثوري الرياضي ، حيث ألقى قصيدته الزلزالية الموسومة (عدت لا أطيق عتمة القبر) التي أخرج فيها نافثاً ما في دواخله الحقيقية المتمردة على واقع الشعب العراقي ككل مروراً بما يعانيه أبناء جلدته من العنت والمطاردة والحرمان من استنشاق هواء الحرية.

هذه القصيدة فتحت شِعاباً في نفسية المُتلقي ، فتحولت من منطقة مهجورة إلى مسكونة ، ولا زال وقع تلك القصيدة يحفر أرض ذاتي.

تتشكل هذه القصيدة من بؤرة النص الأصلي (عدت لا أطيق عتمة القبر) ومن دورات تدور في فلك المحور أو البؤرة التي ترتكز مقاطعها المختتمة بذات اللازمة. وإليكم البعض من مقاطعها:

دلفتُ دهاليز التجربة
وامتطيتُ صهوة حصان تجره العربة
يجوب أطلال بابل ونينوى وحضارة قرطبة

هنا ترى حركة سارية في الأسطر الثلاثة ، والسطر الأخير يدخل فيه عامل الزمن أيضاً. فالشاعر مرتبط بحركته إلى حضارات ثلاث لم يبق من الأولى والثانية غير الأطلال ، وأما الثالثة فقد آفلت مع أفول الدولة الأموية.

يا بشري
انتفض ، لا تخف
أنا وحدي لي قدري
ويهمس نغمه الخالد
ردّ دْ يا جيلي الصامد
أنا قوة الحرب
أنا لعنة الصُخب
عدتً لا أطيق الصمت في شعبي
عدت لا أطيق تأوهات على القبر

إنه يدعوك إلى الثورة ، والثائر يتحكم بالقدر ، وله القوة في الحرب ، ولا يتحمل خمول الشعب لأن الشعب الخامل لا يصنع التاريخ.

طعنة الماضي احرقوها
رسـالة الزيف مزقـوهـا
ثـورة النـصر عـمـقـوها
فجروها واعلنوها...

يحث بني أمته على نسيان طعنة التاريخ وإظهار الحقائق بجرأة عالية والأخذ بأية انتفاضة أو ثورة ، تعميقاً وتفجيراً.

هلموا جربوا مرونة الإنسان
وكونوا مسيح هذا الزمان

يدعو إلى التحلي بالمبادئ السامية من تسامح وفداء.

كناري الروح لا تغضب
ما أفرام لا تعتب
أتدري ما شربنا ولم نتعب
شربنا السّمّ والعلقم
كفانا ، إننا لم نهرب

يخاطب عظمائنا وادبائنا مار نرسي الملقب (كنارة الروح) ومار أفرام الكبير ، شارحاً لهم مأساتنا ، ليخبرهم اننا لا زلنا صامدون رغم كل السلبيات التي تقتات من عمرنا لتمحي وجودنا.

بقي لنا أن نقول بأن للأديب ميخائيل ممو تجربة غنية لأكثر من أربعين سنة في مجال الأدب ، بحقوله المتفرعة كالشعر والمقالة والصحافة والترجمة ، يتحدث بلغة حضارية ، قصائده ليست ضبابية ، تشدك اليها بجماليتها وفكرتها ، ونثرياته تلامس المفكرين والشارع.

إنه كبير المقام ، ولكنه متواضع لا يسكن الأبراج العاجية ، بصماته واضحة على الأدب العربي والآشوري ، فهو شامخ دوماً كنخيل سعفاته لا تضمر ، وهو حركي كنهر مندفع لا يتحكم في مجراه. وكما قال الشاعر الفرنسي رامبو (إن الشاعر يبلغ المجهول ، وإذا لم يستطع في نهاية الأمر أن يفهم رؤاه ، فيكفي أنه تمكن من رؤيتها). فها هو في شكل ومضمون قصيدته الآنفة الذكر قد تمكن من رؤية ما لا يتراءى للرائي البصير ، مقتنعاً من طرحه بـوثبته التي تـوحي لنا بأنه موجود دائماً في الحاضر ، في الليل يفتح نـافذة لتدخل نسمة الماضي وتخرج في الصباح عاصفة المستقبل.

بقلم : نينوس نيراري

شيكاغو 7 شباط 2009